يُحشر الناسُ على مثال هيئتهم في الصلاة

الشيخ محمّد مهدي النراقي رحمه الله

مقتطفٌ قيّم اختارته «شعائر» من كتاب (جامع السعادات: ٢٤٦/٣-٢٦٦) للفقيه الشيخ محمّد مهدي النراقي رحمه الله، حول أصناف المصلّين؛ من غافلٍ، إلى حاضرٍ بمقدار، ومستغرقٍ مرتعدة فرائصه. وأتبعه بردٍّ على إشكالٍ وتوضيح حول صلاة الغافل.

«شعائر»

اعلم أنّ الناس ينقسمون في صلاتهم:

* إلى غافلٍ يتمّ صلاته ولا يحضر قلبه في لحظة.

* وإلى مَن يغفل في بعض صلاته ويحضر قلبه في بعض منها، وهذا تختلف حاله بحسب قلّة كلٍّ من الحضور والغفلة وكثرتهما، وزيادة أحدهما على الآخر، فله مراتب غير متناهية.

* وإلى مَن يتمّ صلاته ولا يغيب قلبه لحظة، بل يكون حاضر القلب في جميع صلاته وربما كان مستوعب الهمّ بها، بحيث لا يحس بما يجري بين يديه كما لم يحسّ مولانا أمير المؤمنين عليه السلام بإخراج النصل من رجله الشريفة. وبعضهم حضر الجماعة مدّة، ولم يعرف قطّ من على يمينه ويساره. وكان وجيب «إبراهيم الخليل» يُسمع على ميلَين. وكان جماعة تصفرّ وجوههم، وترتعد فرائصهم عند الصلاة.

وكلّ ذلك غير مُستبعَد، فإنّ أضعافه مشاهَدة في همّ الدنيا وخوف ملوك الدنيا، مع ضعفهم وعجزهم. وحتى يدخل الرجل على ملكٍ أو وزير، ويحدّثه بمهمٍّ ويخرج، ولو سُئل عمّن كان على حواليه، وعن ثوب الملك، لكان غير قادر على الإخبار عنه، لاشتغال همّه به عن ثوبه وعن الحاضرين حوله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ..﴾.

فحظّ كلّ واحد من صلاته بقدر خوفه وخشوعه وتعظيمه. فإنّ موضع نظر الله القلوب، دون ظاهر الحركات. ولذا قال بعضهم: «يحشر الناس يوم القيامة على مثال هيئتهم في الصلاة، من الطمأنينة والهدوء، ومن وجود النعم واللذّة والبهجة بها»، فالمحفوظ حال القلب لا حال الشخص. ولذا قيل: «من صفات القلوب تصاغ الصور في دار الآخرة، ولا ينجو: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾».

هل صلاة الغافل مقبولة؟

إن قيل: المستفاد من الظواهر المذكورة، أنّ صلاة الغافل ليست مقبولة إلّا بقدر ما أقبل عليه منها، والفقهاء لم يشترطوا إلّا حضور القلب عند النيّة والتكبير، فكيف التوفيق؟

قلنا: فرق بين القبول والإجزاء، فإنّ المقبول من العبادة ما يقرّب العبد إلى الله ويترتّب عليه الثواب في الآخرة، والمُجزي منها ما يُسقط التكليف عن العبد، وإن لم يترتّب عليه ثواب ولم يقرّبه إلى الله. والناس مختلفون في تحمّل التكليف، فإنّ التكليف إنّما هو بقدر الوسع والطاقة، فلا يمكن أن يكلّف الجميع بإحضار القلب في جميع الصلاة، إلا أن يشترط ما ينطبق عليه الاسم، ولو في اللحظة الواحدة، وأولى اللحظات به لحظة التكبير والتوجه، فاقتصر على التكليف بذلك.

ونحن - مع ذلك - نرجو ألّا يكون حال الغافل في جميع صلاته مثل حال التارك بالكلية، فإنه على الجملة أقدم على الفعل ظاهراً، وأحضر القلب لحظة، وكيف لا والذي صلّى مع الحدث ناسياً صلاته باطلة عند الله، ولكن له أجر ما بحسب فعله وعلى قدر قصوره وعذره؟

والحاصل: أنّ الإقبال والحضور هو روح الصلاة، وإنّ أقلّ ما يبقى به الروح الحضور عند التكبير، وبقدر الزيادة عليه تنبسط الروح في أجزاء الصلاة، وكم من حيٍّ لا حراك فيه قريب من الميت، فصلاة الغافل في جميعها، إلّا عند التكبير، حيٌّ لا حراك فيه.